مصر من الفتح الإسلامي إلى الغزو العثماني

مصر في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية

بعد الفتح العربي الإسلامي أصبحت مصر جزءاً مهماً من الخلافة الإسلامية ، كما قلنا ، يجري عليها ما يجري على غيرها من أحكام وظروف ، وظلَّ الولاة يتوافدون على مصر من قِبَل الخليفة بعد موت عمر بن الخطاب في عهد عثمان بن عفان من (٢٣ – ٣٥ هـ) ثم في عهد علي بن أبي طالب من (٣٥ – ٤٠ هـ) والذي بوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وانتقل الحكم إلى معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأمويَّة ، ويستمر الحكم في الأسرة الأمويَّة من (٤١ – ١٣٢هـ) حتى تغلَّب عليهم العباسيون وآل إلى الدولة العباسيَّة (١٣٢– ٦٥٦ هـ) جميع الممالك الإسلاميَّة .

وتعتبر فترة الحكم الأموي فترة استقرار ونظام ورخاء بالنسبة لمصر ، وكان أغلب ولاة مصر يتَّسمون بالعدل والقدرة وحسن الخلق ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسي وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهي فترة تتَّسم بالقلق السياسي والفوضى الإدارية ، وارتفاع مبالغ الجبايات

وتعددها ، وجَأَر فيها المصريون بالشكوى من الظلم ، ومن تُعَرُّض أمور البلاد كلها للفساد . (١)

الدولة الطولونية

أما فترة أحمد بن طولون وأسرته (٢٥٤- ٢٩٢هـ) فكانت مصر فيها ولاية شبه مستقلَّة تأسست فيها نظم حكم جديدة مشابهة لتلك الموجودة في دولة الخلافة العباسيَّة ذاتها ، فبدأ ابن طولون بتخفيف المغالاة التي كانت تُتَّبع في جباية الخراج ، وكفَّ عماله عن الجبايات الظالمة ، كما عمل على حماية الفلاح وبثَّ الطمأنينة في نفسه ؛ بالإصلاحات الإداريَّة ، والقضاء على الفتن والاضطرابات والفوضى ، وبتوفير موارد المياه له ، كما استخدم النصارى وعمل على كسب وُدِّهم أيضاً حيث كانوا من الأقليات الكبرى التي لها وزنها ، فاستخدم منهم أهل الفن والصناعة في بناء جامعه وتخطيط " القطائع " وصناعة السفن وغيرها ، وكذلك فعل مع اليهود .

وانعكس أثر هذه الإصلاحات الاقتصاديَّة والإداريَّة الحاسمة في مضاعفة الإنتاج في ميادين الزراعة والصناعة وازدهار التجارة ، فظهرت معالم الثراء على البلاد وأهلها . (٢)

وبعد انهيار الدولة الطولونيَّة عام ٢٩٢ هـ عادت تبعيَّة مصر المباشرة للخلافة العباسيَّة وكانت الدولة العباسيَّة تمر بعواصف من الاضطرابات وعدم الاستقرار .

---

(١) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) نفسه ص ١٠٨ .

وبعد الدرس الذي تلقَّته الدولة العباسيَّة من أحمد بن طولون، فقد حاول الخلفاء السيطرة على مصر من خلال كثرة تعيين الولاة وتغييرهم وباقتطاع جزء من اختصاصاتهم ومنحه إلى عمال الخراج ، ففي خلال ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونيَّة إلى تولية الإخشيد توالى على مصر أحد عشر والياً، بل وصل الأمر إلى تغيير أربع ولاة في سنة واحدة كما وصلت المنافسة بين الولاة وعمال الخراج إلى حد أن بعض عمال الخراج كان يتحكم في تغيير الوالي عن طريق الخليفة العباسي في بغداد .

فتحت تجربة ابن طولون ودولته العيون على ما يمكن أن تقدِّمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكريَّة اقتصاديَّة كبرى، من تمكَّن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل، وبهذا يقيم لنفسه مُلْكاً يدوم بدوامه ويورثه لذريته لذلك حرص الأذكياء من ولاة مصر في هذه الفترة أن يثبِّتوا أقدامهم فيها . (١)

الدولة الإخشيدية

وبعد ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونيَّة نجح محمد بن طغج الإخشيد في أن يؤسِّس في مصر دولة شبه مستقلة دامت ٣٤ عاماً . من عام (٣٢٣ – ٣٥٧هـ) .

حاول الإخشيديون أثناء حكمهم مصر أن يتشبَّهوا بالطولونيين من جميع النواحي خاصة في مراسم البلاد وفي المواكب الرسميَّة وفي

([1]) موقع الهيئة العامة للاستعلامات " الدولة الإخشيدية " .

منظمات الدولة ، وإن كانوا قد حقَّقوا نجاحاً في استقرار مصر ورخائها فإنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الطولونيون .

وبعد وفاة كافور الأخشيد اضطربت أحوال الدولة الإخشيديَّة ، وانتهز المعز لدين الله الفاطمي ذلك الاضطراب وعدم الاستقرار الموجود في مصر بالإضافة إلى ضعف الدولة العباسيَّة في بغداد لانشغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا في البلاد ، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلِّي في سنة ٣٥٨ هـ ، وتمكَّن بهذا الجيش من أقامة الدولة الفاطمية في مصر . (١)

والملاحظ أن مصر كانت في معظم الفترة الواقعة بين (١٣٢-٣٥٨هـ) شبه مستقلَّة ولا تتبع الخلافة العباسيَّة إلا تبعيَّة شكليَّة فقط ، تتمثل في ذكر اسم الخليفة قبل الوالي عند الدعاء على منابر المساجد أو ضرب العملة باسمه ، ثمَّ أخيراً إرسال مبلغ من المال إلى عاصمة الخلافة سنويّاً ؛ مما أعطى مصر تَفَرُّداً عن سائر الولايات العباسيَّة الأخرى ؛ فقد كانت هي الأغنى والأكثر ثراء ، وكان إقليمها هو الأوسع مساحة ، وكان جيشها هو الأقوى ، وكانت أرضها هي الأخصب والأكثر عطاء . (٢)

الدولة الفاطمية

وبانتهاء الدولة الإخشيديَّة على يد الفاطميين خرجت مصر من التبعيَّة للدولة العباسيَّة لتصبح عاصمة للخلافة الفاطميَّة التي أقامت

---

(١) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ١١٣ .
(٢) نفسه ص ١١٩ .

إمبراطوريَّة واسعة قويَّة ذات حضارة مزدهرة ضمَّت إلى جانب مصر المغرب والشام والحجاز واليمن وصقلِّيَّة.

دام حكم الفاطميين لمصر نحو قرنين من الزمان من (٣٥٨-٥٦٧هـ) ويمكن أن نطلق على القرن الأول من هذين القرنين عهد الاستقرار ؛ ففيه تمَّ تنظيم الشئون الداخليَّة ، ونشر الأمن ، ووضع النظم الإداريَّة الجديدة ، والعناية بالجيش ، وتنمية الزراعة ، والنهوض بالتجارة وتشجيع الآداب والعلوم والفنون .

أما القرن الثاني من حكم الأسرة الفاطميَّة في مصر فقد بدأت تظهر فيه الخلافات وبدأ الضعف والانحلال يدب في أجهزة الدولة . (١)

الدولة الأيوبية

بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد (أخر خلفاء الدولة الفاطميَّة) اجتمعت عناصر السيطرة على الحكم في مصر في يد صلاح الدين بن نجم الدين أيوب الذي كان وزيراً للعاضد وزادت قوته وتأكدت بوصول العائلة الأيوبيَّة كلها من الشام إلى مصر وتم إحلالهم في جميع الوظائف الكبرى بالبلاد محل كبار الموظفين الفاطميين، وقام صلاح الدين بدور كبير في إقامة الدولة الأيوبيَّة في مصر بالتدريج ، فبدأ بإضعاف الخليفة العاضد وإبعاد قواده عن القاهرة وأحلَّ محلهم رجالاً تابعين له ، وبدأ كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس ، وأوَّل مدرسة أنشأها هي المدرسة الناصرية في الفسطاط .

---

(١) نفسه ص ١٢٦ .

تولى المُلْك من الأسرة الأيوبيَّة في مصر ثمانية ملوك استمرَّت مدة حكمهم حوالي ثمانين عاماً من سنة (٥٦٧ – ٦٤٨ هـ) كان للدولة الأيوبيَّة أثار مهمة من الناحية السياسيَّة تتمثل في القضاء على الدولة الفاطميَّة الشيعيَّة بمصر ، والعودة بها إلى نفوذ الدولة العباسيَّة السنيَّة ، ومن الناحية العسكريَّة تتمثل آثارها في استعادة قوَّة البلاد ، والوقوف في مواجهة الجيوش الصليبيَّة ، أما من الناحية الدينيَّة فكان الأثر المهم هو العودة إلى المذهب السُّني بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي كان الفاطميون يحاولون نشره في مصر .

عصر المماليك

في أواخر أيام الدولة الأيوبيَّة سيطر المماليك على معظم الوظائف الكبرى في مصر، ومع مقتل " توران شاه" آخر سلاطين الدولة الأيوبيَّة تزوجت شجرة الدر (زوجة الملك الصالح أيوب) من أحد زعماء المماليك وهو "أيبك التركمانى" وقامت بذلك السلطنة المملوكيَّة في مصر الإسلاميَّة وأمضى السلطان " أيبك " معظم سنوات حكمه (١٢٥٠ – ١٢٥٧ م) في دفع غارات ملوك الشام من الأيوبيين على مصر ، واتَّسعت السلطنة المملوكيَّة البحريَّة حتى شملت مصر والشام ، وتولى عرشها بعد " أيبك التركمانى " وابنه فئة من السلاطين يعرفون بالمماليك البحريين أشهرهم السلطان " قطز" (١٢٥٩ – ١٢٦٠ م) والذي ألحق بالمغول أوَّل هزيمة في تاريخهم في عين جالوت ، والسلطان الظاهر " بيبرس" (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) وهو الذي نجح في إقامة الخلافة العباسيَّة في القاهرة وجعل لمصر وسلاطينها من المماليك سيادة دينيَّة على أنحاء العالم الإسلامي .

وقد انتهى العصر المملوكي بدخول العثمانيين مصر بعد انتصارهم على السلطان " طومان باى" في موقعة الريدانية ١٥١٧م .

تمكَّن المماليك من حكم مصر مدة تزيد على القرنين ونصف بانفرادهم بالسلطة على أسرتين : المماليك البحرية من (٦٥٠ – ٧٨٤ هـ) ، ثم المماليك البرجية الشركسيَّة من (٧٨٤– ٩٢٣ هـ) ، كما كان للمماليك شأن عظيم في تقوية جيوش الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة في مختلف العصور بل إنَّ دورهم في مصر لم ينته بزوال دولتهم وسلطانهم المطلق مع الغزو العثماني سنة (١٥١٧م / ٩٢٣هـ) ؛ فقد تمكَّنوا من التغلغل في السلطة حتى كان النفوذ الشكلي للوالي العثماني ، أما النفوذ الفعلي فكان لبقايا طبقة المماليك لمدة ثلاثة قرون أخرى ، حتى أن محمد عليّ الذي تولَّى حكم مصر في أوائل القرن التاسع عشر لم يجد أمامه سبيلاً للتخلص منهم نهائيّاً إلا بالقضاء عليهم قضاء مبرماً في مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١ م .

والمماليك في عصر الحكم المملوكي قبل الغزو العثماني كان اهتمامهم الأكبر ، كقادة عسكريين ، هو تأمين حدود البلاد والسيطرة على زمام الأمور في الداخل وهم وإن لم يكونوا أصحاب حضارة أو راغبين في إقامتها إلا أن مصر كانت في عهدهم دولة مستقلَّة مستقرَّة خاصة كبار سلاطينها مثل : عز الدين أيبك الذي صدَّ مع أقطاي حملة لويس التاسع ، وسيف الدين قطز قاهر التتار ، والظاهر بيبرس الذي استأصل فولول التتار ، والناصر محمد بن قلاوون، والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام .

فبرغم صراع الأمراء المماليك على الحكم وقتل بعضهم بعضاً من سبيله إلا أنهم قضوا على أخطر عدوين على مصر والعرب وهم التتار والصليبيين فيحمد لهم هذا كما يحمد لهم بعض الإصلاحات التي قاموا بها من إنشاء المدارس والمساجد والمكتبات وتشييد العمائر والجسور والقناطر وحفر الترع والخلجان ... والذي ساعدهم على هذه الإصلاحات رغم كثرة حروبهم أن مصر في عهدهم لم تكن ولاية مملوكيَّة خيرها لغيرها من الولايات الأخرى إنما كانت مصر هي مقر حكمهم فحرص ملوكهم الكبار على إصلاحها وتعميرها .

التتار والعثمانيون الأصل والطغيان والتظاهر بالإسلام

كان العثمانيون شراً مستطيراً على العرب عامة وعلى مصر خاصة ففي عهدهم أصبحت مصر ولاية من الولايات التسع والعشرين العثمانيَّة ؛ فنهبت ثرواتها لإثراء بلاط الخلافة وعاصمتها ، ورُحِّل علماؤها البارزون وعمالها المهرة فهدمت الحضارة المصريَّة لصالح النهضة العثمانيَّة ؛ فصار العثمانيون بذلك أشرَّ من التتار؛ فإذا كان التتار طغاة متوحشين ، أعداءً للحضارة ، نهَّابين لثروات البلاد فإن العثمانيين زادوا فوق ذلك أنهم حرموا البلاد من علمائها وعمالها وضربوا على مصر عزلة قاتلة ؛ فلَبِثَ المصريون في كهفهم ثلاثمائة سنين إلا اثنتي عشرة سنة (١٥١٧ – ١٨٠٥ م) ثمَّ بُعِثُوا ليعلموا كم جنى عليهم العثمانيون .

كنت أشبِّه العثمانيين دائماً بالتتار في الخراب والدمار حتى اكتشفت أنهم من جنس التتار فعلاً ، وسيرتهم هي نفس سيرة التتار حتى في

اعتناقهم الإسلام ، والثابت تاريخيّاً أنّ القسم الأعظم من التّتار اعتنق الإسلام على المذهب السنى منذ دخول حفيد جنكيزخان "بركه خان " الإسلام ، وهذا لم يمنع ابن تيميَّة من الإفتاء بوجوب قتال التتار المسلمين بل إنه خرج بنفسه لقتالهم عندما جاءوا ليحتلُّوا بلاد الشام .

يقول ابن كثير في ذلك : " وقد تكلَّم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه .

فقال الشيخ تقي الدين بن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد . "(١)

وبنو عثمان قبائل تتريَّة طرقت في القرن الأول للميلاد بلاد تركستان الواقعة شرقي بحر قزوين واستوطنتها ، ثمَّ اعتنقت الإسلام في منتصف القرن الرابع الهجري .

وفي القرن السابع الهجري وصل جنكيزخان بجيوشه إلى تلك البلاد فرحَّل بعض سكانها إلى أسيا تحت قيادة زعيمهم " أرطغل بن سليمان "

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف

وأقطعهم السلطان السلجوقي أرضاً واسعة يقيمون فيها ، وخلف " عثمان بن أرطغل " أباه فاستقلَّ بالحكم وأسَّس السلطنة العثمانيَّة وتبعه في الحكم ابنه " أورخان بن عثمان " الذي ألَّف جيشاً من ستة آلاف من الأسرى أطلق عليهم " الإنكشاريَّة " أي الفرقة الجديدة، وعبر بهم مضيق " الدردنيل " ووسَّع مملكة أسلافه ، وقد سار من تلاه من السلاطين ، وهم مراد الأوَّل ، ومحمد الأوَّل ، ومراد الثاني على نهج من سبقهم في التوسعات حتى بلغت " الإنكشاريَّة " مائة ألف مقاتل ، وعندما آلت السلطنة إلى محمد الثاني تمكَّن من الانتصار على جيوش الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الشرقيَّة في "بيزنطة" وفتح " القسطنطينيَّة " سنة ١٤٥٣م وأصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لهم.(١)

***

(١) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ١٨٥ ، ١٨٦ بتصرَّف